Dirasat, Human and Social Sciences, Volume 49, No. 6, 2022

Deanship of Scientific Research

Arabic Language Reality between Globalization and Identities Conflict

Huda Taha*
United Arab Emirates University, United Arab Emirates.

Received: 23/2/2021
Revised: 8/8/2021
Accepted: 26/8/2021
Published: 30/11/2022

* *Corresponding author:*
huda.salem@uaeu.ac.ae

Citation: Taha, H. (2022). Arabic Language Reality between Globalization and Identities Conflict. *Dirasat: Human and Social Sciences*, *49*(6), 94–106. https://doi.org/10.35516/hum.v49i6.3696

© 2022 DSR Publishers/ The University of Jordan.

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) license https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

Abstract

This study attempts to investigate the linguistic reality that the Arabic language faces at three levels: First, the globalization and linguistic imperialism that imposed the English language under the new world order, creating bilingualism or multilingualism. Second, the identity conflict between Arabic nationalism, represented by standard Arabic, and nation-states represented by their dialects. Third, the linguistic entities (pidgin) created by economically, politically, and socially oppressed groups, have not been integrated into the societies where they moved to. Therefore, they have created a fragile system of communication consisting of the two languages combination. This paper, hence, tries to analyze the linguistic phenomena, the identities conflict, and their implications on the Arabic language by extrapolating some written samples and exploring its reflections.

Keywords: Identity; globalism; standard Arabic; dialect; pidgin; bilingualism; diglossia.

و اقع اللغة العربية بين العولمة وصراع الهويات

هدى طه*

جامعة الإمارات العربية المتحدة، الإمارات العربية المتحدة.

ملخّص

تحاول هذه الدراسة أن تستقري الواقع اللغوي الذي تعيشه العربية في ثلاثة مستويات: مستوى العولمة والإمبريالية اللغوية التي فرضت (الإنجليزية) في ظل النظام العالمي الجديد فأوجدت الثنائية أو التعدد اللغوي، ومستوى صراع الهويات بين القومية العربية وتُمثّلها (الفصحى-والقطرية أو المحلية) وتمثّلها (العاميات)، ويتمثّل المستوى الثالث في كيانات لغوية (رطانات) أوجدتها جماعات مقهورة اقتصاديًا وسياسيًا واجتماعيًا، لم تندمج في المجتمعات التي وفدت إليها، وبقيت مستقلة في مجموعاتها، فأوجدت نظامًا هشًا للتواصل، يتشكّل من مجموع اللغتين، وتعتمد هذه الدراسة منهجًا تحليليًّا استقرائيًّا، وذلك بتحليل الظواهر اللغوية التي أنتجها هذا الصراع وانعكاساتها على العربية، واستقراء نماذج كتابية للمقارنة بين تلك الانعكاسات.

الكلمات الدالة: الهوية، العولمة، الفصحى، العامية، الرطانة، الثنائية اللغوية، الازدواجية اللغوية.

المقدمة:

تتشكّل الهوية باللغة وعناصر أخرى بعضها قارٌ وبعضها متغيّر، واللغة من العناصر القارة في تشكيل الهوية رغم طبيعة النظام اللغوي المتغيّرة، وهو تغيّر مرهونٌ بعوامل داخلية وأخرى خارجية، تعكس في مجموعها ذلك التفاعل بين اللغة والعالم الخارجي الذي ينعكس على العلاقة بين اللغة والهوية، وتأثير كل منهما في الآخر.

اللغة **علامة تفرّد** يمتاز بها كل فرد عمن سواه، وهي **علامة انتماء** إلى جماعة بعينها، تمتاز بها الجماعة عن جماعات أخرى، ولذلك هي "ساحة صراع لأنها انتماء اجتماعي" (كالفي، 2008) (انظر: السعران، 1963). وهي **علامة قيمة وتميّز**، فـ"الأفراد يودّون أن يعتقدوا أنهم ينتمون إلى جماعة ذات مكانة عالية أو قيمة عليا" (كالفي، 2008). ومن هنا تنشأ إشكالية اللغة في إثبات هويات متعددة: هوية الفرد التي تميّزه في مجتمعه، وهوية الجماعة التي ينتسب إليها الفرد، وهوية "عليا" تكون طريقه نحو "العالمية" والتميّز (لويس، 1959).

وفي سياق صراع الهويات تواجه اللغةَ ظواهرُ لغويةٌ اجتماعيةٌ مختلفة مثل: الازدواجية، والثنائية، وتعدد اللغات، وظهور كيانات لغوية (مثل الرطانة)، وهي ظواهر في أصلها تحفظ تعايش هويات متعددة لدى الفرد الواحد أو المجتمع الواحد. لكنّها تخلق صراعًا بين هذه الهويات على المدى البعيد، ينعكس على اللغات التي تمثّلها. وفي أحسن الأحوال تتعايش هذه اللغات (أو اللهجات والكيانات اللغوية) بسلام ظاهري، لكنها في الباطن تقضّ بناء اللغة ووجودها وتهدد بقاءها. وهي حروب لا نهاية لها في سجال بين التفرد والتعدد، والأنا والآخر، تؤجّجها الثقافة المجتمعية والرؤى السياسية.

تحاول هذه الدراسة أن تستقري الواقع اللغوي الذي تعيشه اللغة العربية في ثلاث مستويات: مستوى **العولمة** والإمبريالية اللغوية التي فرضت (اللغة الإنجليزية) في ظل النظام العالمي الجديد فأوجدت الثنائية أو التعدد اللغوي، ومستوى **صراع الهويات بين القومية** العربية -وتُمثّلها (الفصحى)- **والقطرية أو المحلية** –وتمثّلها (العاميات)-. ويتمثّل المستوى الثالث في **كيانات لغوية (رطانات)** أوجدتها جماعات مقهورة اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا، وفدت على المجتمعات العربية (الخليجية خاصة) ولم تندمج فيها، وبقيت مستقلة في مجموعاتها، محافظة على هوياتها، فأوجدت نظامًا هشًا للتواصل -في أدنى مستوياته- مع الطرف الآخر، يتشكّل من مجموع اللغتين.

و اقع اللغة وصراع الهويات

وتعتمد هذه الدراسة منهجًا وصفيًا تحليليًا استقرائيًا، وذلك بوصف الظواهر اللغوية الناجمة عن التعدد اللغوي في عالم متعدّد الهويات، وتحليلها من خلال نماذج كتابية من وسائل التواصل الاجتماعي وبعض كتابات الطلبة التي تمثّل الاستعمال في مستويات متعدّدة، يجمعها تعرّض أصحابها للنوعات الثلاث: الفصحى والعامية والرطانة. وينقسم البحث إلى ثلاثة أقسام؛ القسم الأول (الهوية في ظل العولمة والتنوّع اللغوي) يعرض لمفهوم الهوية والعولمة، ومحدّدات الاختيار بين لغة أو لغات، والتنوعات اللغوية وعلاقتها بالهوية. وأما القسم الثاني (الازدواجية وصراع الهويات) فيتوزّع بين محاولة الإجابة عن سؤال حول علاقة العامية بالفصحى (امتداد أم تدافع؟)، وهل ثمة هوية (عربية) واحدة أم هويات متعدّدة؟ ثم المقارنة بين الازدواجية والثنائية، يليها مقارنة بين منازل الفصحى والعامية والإنجليزية، وكيف ينعكس ذلك على أبناء اللغة، والأثر الذي تتركه العامية على الفصحى في الكتابة على وجه الخصوص. والقسم الثالث (الرطانة وصراع البقاء)، ويتوزّع على ثلاث عناصر، أولًا تعريفها والتمثيل لها بنماذج من الاستعمال، وثانيًا البحث عن علاقتها بالهوية ومدى تهديدها، وأخيرًا التمثيل ببعض النماذج الكتابية، من كتابات الطلبة ومواقع التواصل الاجتماعي، لتوضيح انعكاسات الواقع اللغوي والظواهر اللغوية المختلفة، بما فيها الرطانة، على اللغة والتفكير. والرطانة ظاهرة غير شائعة في العالم العربي، لكنّ وجودها وأثرها ظاهر في الخليج العربي، وفي دولة الإمارات على نحو خاص، لأسباب ديموغرافية واقتصادية، ولا يمكن تجاوزها في حال دراسة الواقع اللغوي للعربية.

1 الهوية في ظل العولمة والتنوع اللغوي

تواجه اللغات تحديا كبيرًا في ظل العولمة، حيثُ يُراد للعالم أن يكون قرية صغيرة تتماهى فيها اللغات والثقافات، وتُفرض فيها ثقافة القوي ولغته. وتحتلّ اللغة الإنجليزية بفضل العولمة "مركز النظام الكوني اللغوي" لتصبح لغة الاتصال العالمي (دوسوان، 2011).

وإذا كانت العولمة تتجلى في النظام الاقتصادي والثورة المعلوماتية والتوغّل السياسي والانفجار المعرفي، فإن اللغة هي جسر العبور إلى كل ذلك، وهي بوابة الدخول إلى الحضارات والثقافات المختلفة، وهي عنوان التمايز الدولي والمجتمعي والفردي. وتتجه العولمة "بالعالم نحو ما يسمّى بالتجانس الثقافي الذي تتلاشى فيه الفروقات والخصوصيات الثقافية للشعوب، وتطغى فيه صورة وحيدة للثقافة تصدّرها الولايات المتحدة الأمريكية لكل الشعوب" (النجار، 2008) مستعينة بالعلوم والتكنولوجيا التي حازت فيها مراتب السبق. وبذلك فإن العولمة هي "خصم الهوية اللدود عند المشفقين من تَغوّلها على الخصوصيات الثقافية وسعيها الدؤوب لتنميط العالم كله على مثالها" (الموسى، 2007).

وبين التماهي مع الآخر والارتداد إلى الذات، ظهرت خيارات وتنوعّات لغوية لمدّ جسر التواصل مع الآخر دون خسارة الذات. فهل حقًا تمثّل العولمة تهديدًا لهوية الفرد؟ وهل الخيارات أو التنوّعات اللغوية حصنٌ للهوية أم تهديدات إضافية تقضّ بناء الهوية؟ تتطلّب الإجابة بدءًا البحث عن مفهومي الهوية والعولمة.

1.1. الهوية والعولمة

الهوية مفهوم مُعقّد يطرح إشكالات منهجية ونظرية على مستويي الاصطلاح والتحليل كما يرى (الزاوي، 2014). وقد شهد هذا المفهوم، كما جاء في معجم العلوم الإنسانية "دخولًا مفاجئًا وكثيفًا بدءًا من التسعينات"، إلا أنه أصبح "مفهومًا واسعًا، غير ثابت يُستعمل في الدلالة على ظواهر لا علاقة لها بهذا الاسم" (دورتيه، 2009).

ويُميّز المعجم بين ثلاثة مجالات لاستعمال هذا المفهوم: الهوية الجَماعية، والهوية الاجتماعية، والهوية الشخصية (دورتيه، 2009):

- الهوية الجَماعية: هوية القوميات، والأقليات الثقافية، الدينية أو الإثنية.
- الهوية الاجتماعية: تُعْنى بتأكيد موقع الفرد داخل المجتمع من خلال عمره، ومكانته في الأسرة، ومهنته، وجنسه، والتزاماته الشخصية.
- الهوية الشخصية: وتتعدد الآراء في مفهومها بحسب المدارس والاتجاهات.

وذلك ما يجعل مفهوم الهوية مفهومًا مُرَكّبًا. فالهوية في حقيقتها هويّات. ولذلك يؤكد صاحب كتاب الهوية والعنف على قضيّتين متمايزتين في شأن الهوية؛ "الأولى، هي الاعتراف بأن الهويات ذات بنية تعددية متينة، وأن أهمية هوية واحدة لا تتطلب بالضرورة محو أهمية الأخريات. والثانية أنه لابد للشخص أن يقرّر -على نحو صريح أو ضمني- اختياراته فيما يتعلق بالأهمية النسبية لانضمامه، في سياق معين، إلى الولاءات المتباينة والأولويات التي يمكن أن تتنافس من أجل أن تكون لها الأسبقية". (صن، 2008)

ولعلّ ذلك يضعنا أمام اختزالين يشكلان مأزقين من وجهة نظر الكاتب؛ الأول يتمثّل في "**إغفال الهوية**" وذلك "يأخذ شكل التجاهل أو الإهمال الكلي لتأثير أي شعور مشترك بالهوية مع آخرين على ما نعتبره ذا قيمة، وعلى سلوكاتنا...". والثاني هو "**انتماء منفرد**"، "يأخذ شكل افتراض أن أي شخص ينتمي عمليًا، أولا وقبل كل شيء، إلى جماعة واحدة فقط، لا أكثر ولا أقل". (صن، 2008)

فمن نحن؟ ومن يقرّر ذلك؟ إنّنا "ننتمي إلى العديد من الجماعات المختلفة، بطريقة أو بأخرى، وكل من هذه الجماعات يمكن أن تمنح الشخص هوية يحتمل أنها مهمة بالفعل. وربما كان علينا أن نقرر أهمية -أو عدم أهمية- جماعة معينة ننتمي إليها بالنسبة إلينا. وهنا توجد ممارستان مختلفتان رغم ترابطهما: (1) أن نقرّر ما هي هوياتنا المعنية، و(2) تقييم الأهمية النسبية لتلك الهويات المختلفة. وكلتا المهمتين تتطلبان التفكير والاختيار" (صن، 2008). وكلاهما يحتاج أرضية ديمقراطية تبسط الخيارات أمام الفرد وتمنحه حق الاختيار ليكون شريكًا في هذا الاختيار وليس ضحية له.

وقد ركّز Bourdieu (1977) على العلاقة بين الهوية والقوة الرمزية. فالقيمة المنسوبة إلى الكلام لا يمكن فهمها بمَعزَلٍ عن الشخص الذي يتحدث، والشخص الذي يتحدث لا يمكن فهمه بمَعزَلٍ عن شبكات التواصل الاجتماعي.

وأكد (west, 1992)، على أن مفهوم الهوية لا ينفصل عن توزيع الموارد المادية في المجتمع. فالأشخاص الذين لديهم إمكانية الوصول إلى مجموعة واسعة من الموارد في المجتمع يستطيعون الوصول إلى السلطة والامتياز، اللتين بدورهما تؤثران في كيفية فهمهم لعلاقتهم بالعالم وإمكانياتهم في المستقبل. وهكذا لا يمكن فهم السؤال "من أنا؟" بمعزل عن السؤال ماذا يمكنني أن أفعل؟" حسب (وست)، ستتحول هوية الشخص وفقًا لتغيير العلاقات الاجتماعية والاقتصادية.

واستخدم (Norton, 1997) مصطلح الهوية للإشارة إلى كيفية فَهْم الناس لعلاقتهم بالعالم، وكيفية بناء تلك العلاقة عبر الزمان والمكان، وكيفية فَهْم الناس إمكانياتهم المستقبلية. ولذلك يختزل (Norton, 1997) مفهوم الهوية بالرغبة؛ الرغبة في الاعتراف، والرغبة في الانتماء، والرغبة في الأمن والسلامة.

وأما العولمة فمصطلح لا يقلّ تعقيدًا عن الهوية؛ فهي في إحدى تعريفاتها "تزايد الاندماج الدولي في أنظمة اقتصادية وثقافية وسياسية ودينية

ومجتمعية" (الفهري، 2013)، ومن هذا التعريف يتّضح التقاطع بين الهوية والعولمة، ومن ثَمّ بين العولمة واللغة.

ويُصوّر (جورج ريتزر) العالم قبل العولمة بـ"صلب"، وعالم العولمة بـ "سائل"، وأن "ما بدا صلبًا بمعدل متصاعد على مدى القرون القليلة الماضية... قد أخذ في الذوبان وصار سائلًا على نحو متزايد. وبدلًا من التفكير في البشر، والموضوعات والمعلومات والأماكن بوصفها أشياء تشبه كتل الجليد، تتعين رؤيتها بوصفها تنزع، في السنوات الأخيرة، للذوبان والتحول على نحو مطّرد إلى سوائل" (ريتزر، 2015). وبالتالي تفقد هويّتها، وتذوب في الآخر، وهذا الآخر أيضًا يصبح له شكل جديد. وكما قال ليونيل جوسبان -وزير فرنسي سابق-: "إن العولمة تحمل في أحشائها خطر التنميط الثقافي". (المنجرة، 2011)

وليس الأمرُ وكأنّ سُلطة عليا تفرض نفسها على العالم، وإن كان ذلك يحدث أحيانًا، إلّا أنّ "العولمة ليست سيرورة أحادية الاتجاه مثل مفهومي الغربنة والأمركة... بينما تتدفق كل الأشياء من الغرب والولايات المتحدة الأمريكية إلى كل مكان من العالم، فإن الكثير منها يتدفق إلى الغرب والولايات المتحدة الأمريكية من كل مكان" (ريتز، 2015). والناتجُ أن هذه "السيرورات الكونية لا تكمل بعضها بعضًا فقط... ولكنها تدخل أيضًا في صراع مع بعضها بعضًا" (ريتز، 2015).

وعند إسقاط مفهوم العولمة على اللغة، يبرز مفهوم **العولمة اللغوية** ليتقاطع أو يتباين مع مفاهيم أخرى، مثل اللغة المشتركة، أو "الفرنكية" lingua franca، أو الدولية international، أو اللغة العالمية world language.... ويرى (الفهري، 2013) أنه "يكمن تبنّي العولمة اللغوية (والدفاع عنها) أو رفضها، أولًا، في القدرة على فصل وظيفة اللغة التواصلية communicative عن أبعاد الصراع والهيمنة". ويرى (معلوف: 2015) أن الهوية المتعدّدة أمر حتمي بالنظر إلى العولمة. وما يعرض لمفهومي (الهوية) و(العولمة) من تغيّر وتطوّر يجعلهما ملتبسين في علاقتهما باللغة، لاسيما في واقع متعدّد اللغات والهويات، ولا يمكن اختزال هذه العلاقة بأحكام كليّة وقطعية، وليس هذا هدف الدراسة، وإنما الهدف محاولة تفكيك هذا الالتباس وفهم هذه العلاقة وأثرها في التطور اللغوي.

2.1. لغة أم لغات؟

في الظاهر يبدو خيار الوحدة اللغوية أسهل وأكثر فائدة، إلا أن إلغاء التنوع اللغوي يتبعه إلغاء للتنوع الثقافي والحضاري، واختلال التوازن بين الثقافات وتهميش بعض اللغات أو انقراضها. كل ذلك "يجعل من المشروع، بل من الضروري، التفكير في نظام لغوي عالمي أكثر عدالة وتوازنًا، لا يقوم على لغة واحدة كُبرى، بل على أليغرشية أو قطبية متعددة يجد اللسان العربي فيها (أو يستعيد) مكانته الطبيعية العالمية، إضافة إلى لغات كبرى أخرى مثل الصينية والهندية – الأردية والإسبانية والألمانية والفرنسية". (الفهري، 2013).

وبالنظر إلى عالميّة اللغة الإنجليزية، واتساع دائرة الناطقين بها يومًا بعد يوم، فإن هذه اللغة لم تعد مِلْكًا للناطقين بها. ومن المفارقة أن تصبح اللغة الإنجليزية "لغة كل متكلم (فطري أو غير فطري)، ولغة لا يملكها أي متكلم"، "لقد أصبحت اللغة الإنكليزية اللغة العالمية الأكثر تعددية ثقافيا، وليس في برنامجها فرض نظام أحادي شُمولي للقيم، يضعف ويبتلع الثقافات الأخرى، أو هكذا يبدو" (الفهري، 2013). وهنا يبرز الحديث عن الخيار اللغوي، لكن إلى أي حَدٍّ يجعلُ ذلك اللغات في مأمَن؟ إن التحكّم بالخيار اللغوي وأغراضه، يبدو أمرًا محفوفًا دائما بالمخاطر، وقد يخرج عن السيطرة، وإذا كان المرء يملك أن يختار اللغة التي تُشكّل هويّته، واللغة التي يتواصل بها من أجل التواصل، فإن تحوّلات العولمة، وما تفرضه من تنافس بين المحلي والعالمي، لا يمكن إلا أن ينعكس على اللغات واختيارات المتكلّمين. وإذا كان استحضار وعي المتكلّمين مُمكنًا في البدء فإنّ ذلك ليس مأمونًا في الأجيال المتلاحقة. "إن ثنائية اللغة تمنح تسوية مؤقتة بين اللغة المهيمنة واللغة المهيمَن عليها"، لكنّ هذه التسوية قد تنقلب لصالح اللغة المهيمِنة في حال اختلال الأدوار، فتُصبح اللغة جزءًا من الفولكلور، وتتضاءل مكانتها تدريجيًا (كريستال، 2013). والأخطر من ذلك، ضياع ما تحمله اللغة؛ فكما يقول (Rhydwen, 1998): إن "ضياع اللغة لا يُشكّل ضياع مفهوم أو فكرة مجرّدة، بل ما يحدث هو تغيير الناس لنمط تصرفاتهم، فيعجزون عن نقل لغاتهم عبر الأجيال. وهذا الأمر مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالناس، ولا يمكن أن يُعدّ ببساطة معضلة فكرية يمكن حلّها"(كريستال، 2013).

وبذلك يصبح خيار التعدّد اللغوي هو الخيار الأفضل في حال الاحتفاظ باللغات الأصلية في مجتمعاتها. ومن المغالطة اعتقاد أن التنوع اللغوي مضيعة للمال، فكما يُقال: "إنّ اللغات محرّك التجارة"، وتعدّ "اللغة جزءًا من الموارد البشرية التي يمكن استخدامها لتسهم في زيادة الإنتاجية". (كريستال، 2013).

فإذا كنا لا نملك إيقاف العولمة، أو منع اكتساح اللغة الإنجليزية، فإننا نملك أن نطوّر وعيًا بأهمية اللغة الفصحى التي يمكن أن تشكّل درعًا واقيًا في وجه التغيّرات الثقافية والاجتماعية.

3.1. التنوعات اللغوية والهوية:

تشكل الثنائية أو التعددية اللغوية واقعًا تعيشه كثير من المجتمعات الإنسانية. ويمكن التمييز بين نوعين من الثنائيات/ التعددية اللغوية: نوعٌ طبيعي ناشئ عن ثنائية عرقية أو تعدّد عرقيّ في مجتمع واحد متداخل، توحّده الجغرافيا والسياسة والاقتصاد ورصيد مشترك من الثقافة، مما يحدو أبناء المجتمع لاكتساب لغتيه أو لغاته، على نحو تلقائي منذ الطفولة. وذلك مثل الثنائية العربية والأمازيغية في المغرب العربي، والعربية والكردية في العراق وسوريا، والعربية والفارسية (العجمية) في بعض دول الخليج. وذلك يجري بتوجيهات سياسية أحيانًا، أو اجتماعية وعرفية في أحيان أخرى. وقد

يحاول الأبناء إخفاء (نصفهم) اللغوي الأضعف، لاعتبارات اجتماعية أو ثقافية، في محاولة للاندماج في المجتمع، لاسيما في حال وجود فروقات أو تمييز اجتماعي وثقافي ضد الأقليات. وقد يكون هذا التمييز وهمًا أو مستبطنًا. فالإشارة إلى "عرب" أو "عجم" أو "بربر" أو "أمازيغ" أو "كرد"...إلخ، قد لا تخلو من محاولة لتقسيم المجتمع إلى نحن والآخر، ويُعبّر عنها أحيانًا بألفاظ تبطن العنصرية والعصبية مثل "الأصل" و"الدخيل"، وغيرها. وقد تكون هذه النظرة عكسية، فيرى "الكردي" أو "الأمازيغي" أو "الفارسي" نفسه الأقدم وجودًا، أو الأقدم حضارة، والآخر "العربي" المنافس في الوجود والثقافة واللغة.

وفي حالة تُشبه الطبيعي، ولكنها أكثر تعقيدًا، تنشأ الثنائية أو التعددية حين تختلف لغة الأم عن لغة الأب، ليس بسبب التعدد العرقي للدولة وإنما في حالات زواج عربي من أجنبية أو العكس واستقرارهما في محيط أحد الزوجين، أو محيط غريب عليهما كما في حالات الهجرة، حيث يكتسب الأبناء لغتي الأم والأب في البيت، ولغة المجتمع أو لغاته في حالات أكثر تعقيدًا.

أما النوع الآخر من الثنائية/ التعددية اللغوية **فمُتَعَلَّم**؛ يتعلّم الأبناء فيه لغة ثانية، أو لغات، بعد الطفولة، ولا يبلغ إتقانهم لها إتقانهم لغتهم الأولى (انظر: الثنائية اللغوية. بعلبكي: 1990) وهذا النوع ينطبق على كثير من الدول التي اتخذت من لغة الاستعمار (مثل الانجليزية أو الفرنسية) لغة ثانية تزاحم اللغة الأولى.

وتُفرّق الدراسات اللغوية بين الاكتساب والتعلم، وأثرهما في اللغة الأولى. ففي الحالة الأولى، تبرز اللغات المختلفة كعنوان للهوية والتمايز، ويحرص أبناؤها على استخدامها، وتحظى ببعض الاستقرار. وهو الحال في كثير من المجتمعات العربية مثل المغرب والعراق وسوريا، ودول شرق آسيا كما في الصين وأندونيسيا، وكذلك بعض المجتمعات الغربية كالولايات المتحدة الأمريكية وبعض دول أوربا. أما في الحالة الثانية، فتشكل اللغة الثانية مصدر تهديد للغة الأولى، لأنها ليست جزءا من ثقافة المتعلّم، وصلته بها ليست طبيعية، وإنما هي امتداد لهيمنة ثقافية، كهيمنة الإنجليزية أو الفرنسية على كثير من دول العالم. وينعكس أثر اللغة الثانية المكتسبة بالتعلّم "في إعادة تشكيل الكثير من الأفكار والقيم في ذهن المتعلّمين من خلال اللغة المكتسبة" لاسيما و"أن تعلّم اللغة لا ينفصل عن تعلّم تراث اللغة، وما تتضمّنه من أفكار وقيم وما ترتبط به من تصوّرات وسلوكات، فالمتعلّمون يكتسبون اللغة ويتشرّبون معها مضامين اجتماعية كثيرة مثل القيم والميول والعواطف وغيرها" (النجار، 2008).

وتبدأ اللغة الثانية (المهيمنة) بمزاحمة اللغة الأولى أو اللغة الرسمية، وتقود المجتمع بطرف خفي حينًا ومعلَنٍ حينًا آخر للمفاضلة بينهما. وهذا ما نراه جليًا في توجيه الأسر لاختيار مدارس أبنائهم، ودفعهم لتعلم اللغة الثانية أو التعلم بها دون اكتراث لحال اللغة الأولى أو ما يمكن أن تؤول إليه.

ولا عجب أن نرى الأبناء منذ سنواتهم الأولى في رياض الأطفال أو المدرسة يُقبلون على تعلم الإنجليزية بحب وشغف لأنها لسان كل ما حولهم. إضافة إلى ما تحظى به من دعم مادي ورسمي وإعلامي، وما يتوفر لها من برامج ومواد تعليمية. ويكبر أبناؤنا وتكبر معهم آفاق هذه اللغة (الأجنبية)، فهي سبيلهم لمدّ جسور التواصل مع العالم من حولهم. وهي مفتاح قبولهم في الجامعات والتخصصات المختلفة، وبوابة سوق العمل كما يُزعم. في حين تنحسر مساحة العربية في لغة التراث والماضي، وواقع مليء بالإحباطات العربية ثقافيًا وسياسيًا، ومستقبلٍ لا أفقَ له.

وكذلك الحال في الجامعات وقد تحوّل لسان التعليم في أكثرها إلى الإنجليزية. وأصبح ميزان القبول والتفاضل مرهون بإجادتها. وكل زيادة في حصة اللغة الإنجليزية، تُشكل نقصًا في ميزان العربية، دون أن يعني ذلك بالضرورة مزيدًا من إتقان اللغة الإنجليزية. ومن المفارقة أن يُدرّس تخصصٌ مثل التاريخ ومواد مثل الثقافة والتراث بالإنجليزية كما في جامعة الإمارات. ويبدو التخبط واضحًا في رَهْن خُطَط التعليم ولسانه بحاجة سوق العمل. فيتخرج طلاب الإعلام والسياسة والتاريخ والجغرافيا والخدمة الإجتماعية وغيرها مفتقرين إلى معرفة العربية معرفة تمكّنهم من أداء مهامهم في سوق العمل الذي ما زال في أكثره ناطقا بالعربية على غير ما يُروّج له. وإن صحّ القول بأن التعليم بالإنجليزية من متطلبات سوق العمل فمن الذي وضع هذه المتطلبات ورسم سياسات سوق العمل؟ وكأن هذا السوق يستهدف العالم الخارجي ولا ينظر لحاجة العالم الداخلي الذي نشأ في أحضانه، ويستخدم اللغة جسر عبور للآخر وإن قَطَعَ جسر التواصل مع الداخل.

ليس الإشكال في الانفتاح على العالم واستقبال ألسنة وثقافات مختلفة تحت شعارات الاستثمار والتطوير والتسامح، لكنّ الإشكال يكمن في تغيير سياسات الدول بما يتوافق مع حاجات الآخر (الأجنبي) على حساب (المواطن) الذي يجد نفسه وثقافته ولغته مستلبين لأجل التماهي مع الآخر، في حين أن هذا الآخر لا يتخلّى عن شيء من لغته وثقافته في بلده بدعوى الانفتاح وسوق العمل."إن التعددية اللغوية حين يُنظر إلى اللغات الأجنبية، لا تعني أحادية لغوية أجنبية مفروضة، تُصْغِر اللغات الوطنية. إن شرطها الأول قيام نظام لغوي ترابي يتيح الأولوية للغات الوطنية، المرتبطة بالأرض". (الفهري، 2019)

واليوم نشهد إقبالًا مُتصاعِدًا على تعلّم العربية في أمريكا والصين وكوريا وتركيا لأسباب سياسية واقتصادية، إلّا أنّ هذا الإقبال ليس على حساب اللغة الأولى، وإنما بوصفها لغة ثانية؛ كما في كوريا (انظر: الوطن، 3 يوليو 2018)، والصين (انظر: الحياة 15 نوفمبر 2017).

ليس الأمر مرتبطًا بالجانب القيمي أو الاعتباري للغة فحسب، وإنما هناك بناء اللغة المهدّد على المدى البعيد. فالتعايش بين لغتين أو أكثر، لايمكن أن يحفظ خطًا فاصلا بينهما على المدى البعيد، وسيكون لإحدى اللغتين أو اللغات الغلبة على الأخرى، ويتبع ذلك تأثر النظام الصرفي والبناء التركيبي للغة وتتناقص الحصيلة اللغوية لدى جيل الشباب شيئا فشيئا عن الأجيال السابقة (كريستال، 2013). وإذا كانت كل اللغات عرضة للتغير عبر الزمن، فالسؤال المهم، متى يصبح التغيير مؤذنًا بالخطر؟

2 الازدواجية وصراع الهويات

1.2. العامية والفصحى.. امتداد أم تدافع؟

الازدواجية نِتاجٌ طبيعي لتطوّرِ اللغة؛ ففي الوقت الذي تُقنّن فيه اللغات وتُضبط لأغراض التعليم والحفاظ على ثباتها واستقرارها، تُشكل الازدواجية انفلاتًا من الثبات، يفرضه الاستعمال وقوانين التطور. فتنشأ العاميات في أحضان اللغات، ثم ما تلبث أن تدافعها (الموسى 2007).

والعلاقة بين العامية والفصحى انعكاسٌ للعلاقة بين المحكي والمكتوب، الأولى، أي العامية، قابلة للتطور على نحو سريع، والثانية أكثر استقرارًا. والعاميّة (اللهجة/ الدارجة) مجموعة متنوّعة من اللغات يتّخذ الخلاف بينها ثلاثة أبعاد: المفردات والقواعد والنطق (اللكنة)، ويتعثر الوضوح المتبادل كمعيار للهجات (على عكس اللغات) (Edwards، 2009).

وقد بقيت الهوة بينهما تراوح مكانها، لمكانة العربية الدينية والحضارية، وما تحمله من إرث ثقافي ينطق بلسانها. إلا أن ناقوس الخطر بدأ يدق حين تجاوزت العاميات دورها في اقتحام لغة الكتابة والخطاب الرسمي، وتسلّلت إلى نظام الفصحى في أصواتها وصرفها ونحوها ومعجمها. واختلطت الأدوار بينهما.

وزاد الطين بلة، تدخّل أصحاب القرار أو توجيههم بمنح العامية نفوذًا، كما نجد في بعض الشعارات الحكومية والإعلامية، والدعوة لتعليمها للناطقين بغيرها، وهو تدَخُّلٌ في دورها ومحاولة في تغيير وظيفتها. كما لعبت وسائل التواصل الاجتماعي في ترسيخ العاميّات ومنحها أدوارًا ليست لها في الكتابة والنشر.

وثمة فَرْقٌ بين العامية والفصحى في صورة تلقيهما، فالطفل يتلقى العامية على نحو "تلقائي" غير واعٍ، أما الفصحى فيتلقاها إثر دخوله المدرسة بتعلّم القراءة والكتابة فهو تلقٍ "متأمّل" واعٍ ينحو "إلى استخلاص مبادئ لغة الكتاب المدرسي الفصيحة ويجهد في الوقت نفسه لكبح عمل بعض مبادئ العامية التي كان قد استنبطها... التي لا تتلاءم إلى هذا الحدّ أو ذاك مع أصول اللغة المدرسية"(بكداش، 2002). وتعلّم اللغة مرهون بالتعرّض لها، فإنّ "عجز المتعلّم بعد سنوات طويلة من الدراسة عن أن يعبّر تعبيرًا شفويًا تلقائيا بالعربية الفصحى... [مرجعه] قصور معجمه السمعي من هذه اللغة، وكذلك ميله إلى أن يفكّر بالعاميّة، الراسخة في معجمه السمعي، بينما يسعى متعثّرًا إلى التعبير الكتابي بالعربية الفصحى، لكأنه حاول أن "يترجم" من هذه إلى تلك" (بكداش، 2002).

وتتعايش العاميّة والفصحى بمقدار نصيب المرء من كل منهما، فينشأ نوعان من الازدواجية، يصطلح عليهما (بكداش، 2002) بـ "الازدواجية المتفاصلة"، و"الازدواجية المزيجة"؛ "فبقدر ما يرتقي الفرد في سلّم التمكّن من الفصحى، **تنفصل** في عقله المنظومتان الفصيحة والعاميّة **وتستقل** كل منهما في موازاة الأخرى... [فـ] يستطيع المتكلم / الكاتب حينما يتحدث بالفصحى أو يكتب بها، أن يكبح بدرجة أو بأخرى منظومته العاميّة عن الاشتغال، أي أنه يقدر في آن على أن يتكلّم/ يكتب بالفصحى وأن يفكّر بها"(بكداش، 2002) وينشأ ذلك عن وعي تام بالمنظومتين يتيح الانتقال بينهما حسب متطلّبات الخطاب. (ويسميها (الفهري، 2013) الازدواجية القوية والازدواجية الضعيفة).

وفي المقابل، يخفت هذا الوعي "وبقدر ما ينحدر الفرد في سلّم التمكّن من الفصحى، **تمتزج** في عقله المنظومتان العامية والفصحى، **وتتداخل** الواحدة مع الأخرى، مع هيمنة أو غلبة العاميّة... [فـ] يعجز المتكلّم / الكاتب حينما يشرع في الحديث أو الكتابة بالفصحى عن كبح العاميّة عن الاشتغال، فتمارس هذه الأخيرة وطأتها أو إسقاطاتها في اختيار المفردات والتراكيب، لكأنه يفكّر بالعامية فيما هو يحاول أن يتحدث أو يكتب بالفصحى"(بكداش، 2002).

وليس الأمر وكأنّ ثمة انفصالًا تامًّا بينهما، أو أن إحداهما ستحلّ محلّ الأخرى، فالعامية كما يُقال "ابنة الفصحى". ولكنّ الأدوار الاجتماعية والثقافية المنوطة بكل منهما مختلفة، فكما لا يُتوقّع من باحث أن يكتب بحثًا بالعامية، لا يُتوقّع من بائع أن يبيع بضاعته ويروّجها في السوق الشعبي بالفصحى، وإن كان الطموح إلى اتساع أدوار الفصحى مشروعًا بوصفها لغة القرآن والموروث امتدادًا لمشروع الوحدة العربية، ومالها من عمق حضاري وتاريخي، إلّا أن الترويج للعاميات وتوسيع دورها هو ارتداد للقطرية والانقسام وإقصاء للآخر المختلف.

ويتحفّظ (الفهري) على المصطلحات (لغة ولهجة) أو (عامية وفصحى)؛ لما تثيره حمولاتها التمييزية (أو الأيديولوجية أحيانًا)، ولما توهمه هذه المصطلحات من ثنائية التنوع. ويختار مصطلح (نوعة)، مؤكّدًا على أن العربية تشمل "نوعات"، مثل المعيارية (الفصيحة)، وغير المعيارية (العامية)، والوسيطة، والمختصة وغيرها. (الفهري، 2019) وبالتالي فإن الدعوات المناصرة للعاميات قاصرة وسطحية ومضلّلة.

ويحاول بعضهم أن يقارب بين التعدد اللهجي اليوم والتعدد اللهجي الذي خرجت من ائتلافه العربية الفصحى، والبون بينهما شاسع؛ إذ "أنّ الفرق بين مستوى اللغة المشتركة ومستوى اللهجة الخاصة لم يبلغ يومذاك أن يمثّل وضعًا ازدواجيًا"(الموسى، 1987). وما نقرأه من شعر أو نثر قديمين لا يعكس الظواهر اللهجية الخاصة، "بل لعلّ التحقيق يُفضي إلى أنّ بعض هذه القبائل فيما أثر عنها من سمات لهجيّة لم تكن تبتعد عن الائتلاف الفصيح ابتعادًا أصوليًا" (الموسى، 1987).

2.2 هوية أم هويات:

ومع اتساع رقعة اللغة، تعدّدت العاميات بتعدد الانقسامات السياسية والجغرافية والاجتماعية. ونشأت هويات صغرى (قطرية/ ومحلية) تعبّر

عنها لهجات مختلفة، في ظل الهوية الكبرى (القومية) التي تعبّر عنها اللغة الأم. وهي "لغة أمّ" في أصلها (أي في أصل علاقتها بالعاميات التي تنحدر منها)، أما في واقع الاستعمال ومعايير اللسانيات الاجتماعية، فقد أضحت العامية هي اللغة الأم التي يتلقاها ابن اللغة في طفولته (النجار، 2013)، (بكداش، 2002)، ويتعرض لها استماعًا ومحادثة على نحو طبيعي. وبذلك تقع العربية الفصحى موقعًا دون اللغة الأولى، وأقرب مكانة من اللغة الثانية. والدليل على ذلك أن الأجنبي لا يتملّكها بالكفاءة نفسها مهما بلغت درجة تعلّمه لها.

وإذا كان تمايز الهويات في الثنائيات (أو التعددية) اللغوية واضحًا، فإنه يبدو أكثر ضبابية في حال الازدواجية، حيث تبدو الهويّات أكثر تمازجًا وتقاربا. فأيُّ اختلاف في الهوية تعكسه العاميات؟ وأين صراع الهويات في الازدواجية؟

الأصل أنْ لا صراع هويات بين العربية والعاميات المنبثقة منها. وذلك لأن كلًّا منهما له أدواره المنوطة به، والعلاقة بينهما علاقة أصل وفرع، فالفصحى أصل تتفرّع منه العاميات. لكنّ الأدوار قد اختلطت، وبات الفضاء الإلكتروني بيئة خصبة للهجات. وقد ساهم الانسحاب الحضاري الذي تعيشه الأمة العربية في فصل الأجيال الصاعدة عن تراثها ولسانها الفصيح في التعليم والإعلام، وتَصدّرَ الخطاب العاميّ مواقع التواصل الاجتماعي ومشاهيره "الفاشينيستا" و"اليوتيوبرز" المشهد اللغوي في الفضاء الإلكتروني الذي بات يلازم الناس ويعبّر عن واقعهم ولسانهم.

وفي المقابل، أُلصِقت الفصحى بالخطابين الديني والتاريخي، وصُوّرت في الإعلام بأنها لغة عصور خَلت، ولغة المتحذلقين، يلوي المتحدّث بها شدقيه ويتكلّف الحديث بها. وإن طالعتنا بين فينة وأخرى صورٌ مشرقة للغة في جيل الشباب المثقف الواعي والفخور بانتمائه العربي على مواقع التواصل الاجتماعي ذاتها.

وفي ظلّ تفشّي الثقافة الغربية، وظهور أجيال لا تتقن العربية، بسبب تحوّل لسان التعليم والتربية إلى الإنجليزية أو الفرنسية، بدأت تتزايد دعوات العودة إلى "العاميات" في سياق البحث عن الذات والخوف من الذوبان في الآخر.

3.2. بين الازدواجية والثنائية:

واتسعت الازدواجية في ظل مواجهة هيمنة اللغة الإنجليزية، وكأن الخوف من الذوبان في الثقافة الغربية الغالبة دفع المجتمعات العربية للارتداد إلى الذات (القطرية أو المحلية) بحثا عن الخصوصية والملامح المميزة. ففي كل مرة تتعالى فيها نداءات الحفاظ على الهوية، تَنطَلق دعوات بالارتداد إلى التراث المحلي في مظاهره الشكلية، وتبرز العاميات في مقابل هيمنة اللغة الإنجليزية خوفًا من الاندثار. و"قد تتملك المرءَ عاطفةٌ معينة تدفعه إلى الانسياق نحو اللغة العامية البسيطة بسبب ارتباطها بالفلكلور الشعبي والبسطاء من الناس، وبسبب التلقائية التي تتمتع بها هذه اللغة، وبسبب التوهم بأن العوائق والحواجز الاجتماعية سوف تتلاشى في حال ارتقت لغة الشعب إلى وضعية وطنية ورسمية"(دوسوان، 2011). وذلك من بقايا أثر المستعمر الذي قطّع أوصال الجسد العربي إلى أقطار، تقوم عليها أنظمة تقتات على قطريتها.

واللغة بوصفها رمزًا للهوية تُعدّ "أداة بالغة القوة للإعلان عن هوية شخص ما والحفاظ عليها" (تراسك، 2002). وهنا يبرز سؤال حول الأسباب التي تدفع الإنسان لاختيار لغة بعينها (أو لهجة) تُعلن عن هويته. هل الأمر مرهون بمكانة هذه اللغة؟ أم بدورها؟ أم بأسباب أخرى؟ واختياره يُعلن عن موقفه من لغته (أو لهجته) ولغات الآخرين (أو لهجاتهم). "واللغويون يطلقون مصطلح "**المكانة الخفية**" على الأشكال اللغوية التي تقل مكانتها بالنسبة للمجتمع ككل بينما تتعاظم أهميتها في الحفاظ على مكانة متحدث ما داخل جماعة اجتماعية معينة" (تراسك، 2002).

وإذا كانت الدعوات القديمة بإحلال العامية محلّ الفصحى قد تزعّمها بعض المستشرقين، وسار وراءهم بعض القُطريين (دعاة القطرية)، فإنها اليوم تتفشى بفضل التكنولوجيا ومواقع التواصل الاجتماعي، مُستغلّة ما خلّفه واقع التعليم من هوة بين اللغة وأبنائها. وهزيمة جيل أو أجيال متتابعة أمام صورة الآخر المنتصر بسياسته واقتصاده ومعرفته.

4.2. منازل الفصحى والعامية والإنجليزية:

ويصبح التقسيم شائكًا ومتداخلًا في مجتمعات تتفاوت فيها مكانة اللغة الدينية والثقافية والأدبية ووظيفتها العلمية والسياسية والاقتصادية والفكرية، وعلاقتها بمتحدثيها. ويظهر ذلك بجلاء عند الحديث عن التقسيمات التالية (بعلبكي: 1990):

- **اللغة الأولى first language أو اللغة الأم native language**: وهي اللغة التي يكتسبها الطفل من والديه والمجتمع.
- **اللغة الثانية second language**: هي اللغة التي يتعلمها الطفل في كبره أو بوسائل غير الاتصال المباشر بمتكلمها؛ مثل الإنجليزية والفرنسية في المجتمعات العربية.
- **اللغة القومية national language**: وهي اللغة الأساسية لقوم ما، التي يتمايزون بها عن أقوام آخرين، مثل اللغة التركية للأتراك التي يتمايزون بها عن الأكراد الذين يتحدثون الكردية في تركيا.
- **اللغة الرسمية official language**: هي اللغة المعتمدة في سجلات الدولة ومحاكمها ومدارسها، إلخ.

وفي المجتمعات الأحادية اللغة، تكون اللغة الرسمية هي اللغة الأم واللغة القومية، أما في المجتمعات المتعددة اللغات، فاللغة الرسمية ليست بالضرورة هي اللغة القومية لمجموعة ما، وقد تتعدّد اللغات الرسمية في الدولة.

وتظهر الإشكالية في توصيف العربية في ضوء التقسيمات السابقة. فالعربية الفصحى لا يكتسبها المرء من والديه ومجتمعه على نحوٍ يمكنه من استخدامها استخدامًا سليما وناجعًا، وبذلك لا ينطبق عليها وصف اللغة الأم، وإنما ينطبق هذا الوصف على العامية (وهي امتداد الفصحى) التي يكتسبها الفرد استماعًا وتحدثا. وبحكم التقارب والتماثل بين العامية والفصحى، فإن العربي يمتلك رصيدًا من معرفتها من خلال معرفته بالعامية، وبذلك فهي أقرب إليه من اللغة الثانية، وأبعد من الأولى (بمقدار الاختلاف بين العامية والفصحى، وبمقدار تعرّضه للفصحى في نشأته).

وهي اللغة القومية لمن شاء أن يمتاز بعروبته، وأصبحت العاميات تزاحمها في هذه المكانة، وصار كثير من الناس يتمايزون بقطريتهم، وعنوان ذلك لغتهم يعلنون بها هويتهم المحلية باستخدام العاميات في التحدث والكتابة. وفي ظل العولمة وتهديد الإنجليزية، ارتدت الأجيال الصغيرة إلى محيطها الصغير (العاميات) بتوجيه (جاهل أو مقصود) للارتداد إلى ذاتها الصغرى (النجار، 2013).

وتعزّز الأنظمة هذا التصوّر بشعارات قُطرية ترفعها تحت عنوان الهوية. فتفرد نشرات أخبارية وصفحات إعلامية بالعامية، إلى جانب الكم الهائل من البرامج التي أصبحت تفيض بها الفضائيات العربية. ويُدعى الناس إلى إحياء التراث بالمفهوم الشعبي الفلكلوري انتفاضا لهويتهم في مواجهة المدّ الأجنبي. ولا تَرَب في ذلك لو قُيّض للعربية الفصحى اهتمامًا مماثلًا وإجراءات تتجاوز التوجيهات الكبرى التي أصبحت شعارات يُحتفى بها إعلاميًا ثم تموت.

فاللغة الرسمية، بحسب الدساتير والتشريعات، هي العربية (الفصحى). أما في واقع الاستعمال والممارسة، فتزاحمها الإنجليزية أو الفرنسية. وليس مستغربًا أن نجد الإنجليزية تتسيّد المشهد في المراسلات والبيانات والخطط والاستراتيجيات وغيرها مما يشكّل المشهد اللغوي في مؤسسات الدولة، بما فيها مؤسسات التعليم (وجامعة الإمارات مثالٌ صارخٌ على ذلك).

إن العاميات في مجتمعات تمارس فيها الفصحى دورها المنشود في التعليم والثقافة والإعلام لا تشكل (هذه العاميات) خطرًا أو تهديدًا للفصحى. أما وقد سُحِبت من الفصحى أدوارها الأساسية، وأصبح المشهد اللغوي متنازعًا بين الرطانات واللغات الأجنبية من جهة والعاميات من جهة أخرى، فإن نصيب الفصحى بدأ يتقلّص ويتضاءل، وأصبحت أدوارها مرهونة بالعاميات. وهذا ما يجعل -في رأيي- من العاميات تهديدًا للفصحى، بدل أن تكون حالة لغوية اجتماعية طبيعية. إضافة إلى أنّ العاميات مخترقة من اللغات الأجنبية أكثر من الفصحى، وتأثرها بالرطانات أكثر وضوحًا. وقد عرض الشرهان للكلمات المستعارة في الدارجة الإماراتية من الهندية والتركية والفارسية والإنجليزية، إضافة إلى التحولات في بناء الكلمات والتراكيب (الشرهان، 1990). في حين تبدو العربية الفصحى أكثر صمودًا أمام هذه التحوّلات.

وتُمثّل اللغات الأجنبية تهديدًا ثقافيًا للفصحى أكثر منه لغويًا، إذ تصنع حالة من الاغتراب الثقافي عند الأجيال القادمة التي تختار أن تتبناها في خطاباتها اليومية، وتُعبّر بها عن أفكارها ومشاعرها، كما نُشاهد على مواقع التواصل الاجتماعي. أما الرطانات، فهي حالة استثنائية خاصة، ربما تكون مهدِّدة على المدى الطويل إذا اتسعت ولم تُعالج بالتخطيط اللغوي. وقد تحَوّلت بعض الرطانات في بعض الدول إلى لغة أمّ في بعض الحالات الخاصة (مثل الإنجليزية التي يتحدّث بها الأمريكيون السود في أمريكا). ويبدو الأمر مستبعدًا في حالتنا العربية، في الوقت الراهن على الأقل. ويبقى أثر العاميات الأكثر تهديدًا للفصحى، بما لهما من تقارب بنائي معجمي، يجعل للعاميات قدرة أن تنسلّ إلى بناء الفصحى وتفتّ من بنائها الصرفي والتركيبي ونظامها الصوتي والمعجمي، وقد يُنتج التداخل بينهما أحيانًا أساليب هشة هجينًا لا تُمثّل أيًا منهما على انفراد، خاصة وأن العامية أكثر عرضة للتغيّر والتأثر باللغات الأخرى والرطانات. وسيأتي التمثيل على هذا في القسم الأخير.

5.2. منازل اللغة في عيون أبنائها:

لاشك في قدرة الأطفال على اكتساب لغات أو نَوْعات (الفهري، 2019) مختلفة في سنواته الأولى، لكنّه لا يكتسبها مجرّدة من مضامينها، بل ويكوّن موقفًا منها. وقد أكّد (هدسون، 1990) أن الأطفال في الرابعة من عمرهم يدركون تحيّزات البالغين، للغة أو ضدّها، ويعتنقونها. ونحن نشهد كيف يستطيع الأطفال في سِنٍّ مُبكّرة أن يكيّفوا كلامهم حسب السياق الاجتماعي، فكيف بالمراهقين، الذين هم في طور اكتشاف ذواتهم وموقعها من الآخرين. ويرى عالم النفس الأمريكي أريك هـ أريكسون (1902-1994) أن "المراهقة لحظة خاصة متميزة في بناء الهوية"، و"أن تكوين الهوية إنما يندرج باستمرار ضمن علاقة تبادلية مع الآخر. ويتيح اللقاء بالآخر للذات أن تحدّد نفسها، إما بالتماهي معه وإمّا بالتخالف معه" (دورتيه، 2009) وكلّ ذلك يجري عبر اللغة.

ولعلّ نظرة في مواقع التواصل الاجتماعي (مثل تويتر والفيسبوك) يمكن أن تعكس واقع اللغة في المجتمع، من خلال استقصاء لغة الكتابة. فاللغة العربية صُنِّفت حسب بعض الإحصائيات على موقع (VICINITAS، 2018) ضمن أعلى 10 لغات في تويتر من حيث كثافة الاستخدام، وتحتلّ الموقع الخامس.

وقد ذكر موقع (statistic، 2016) أن استعمال العربية في تويتر في عام 2016 بلغ نسبة 72٪، حيث احتلّت العربية المركز الأعلى في الاستعمال على مستوى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. ولا أظن أن هذه الإحصائيّات تأخذ بعين الاعتبار الفرق بين الفصحى والعاميّات!

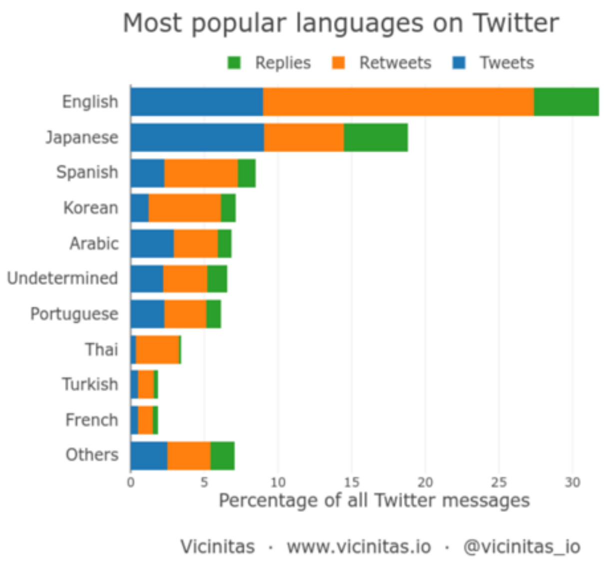

إحصائيات موقع (VICINITAS، 2018) لأكثر اللغات استعمالًا على تويتر

وتطالعنا أحيانا بعض التصريحات التي تعبّر عن نظرة أبناء اللغة للغة، وهي نظرة تعكس الشعور بالمكانة و"القيمة" التي تمنحها اللغة "العليا" لمتحدثيها، فهناك من يُعلّل أنه يكتب بالإنجليزية لأنه يقصد خطاب النخبة، لا العامة! ونجدُ من يُعلّل اختيار الإنجليزية لغة للكتابة بأنها لغةٌ أكثرُ انضباطًا ووضوحا في التعبير عن الأفكار، بينما العربية لغة عاطفية "فضفاضة"! (تويتر)

وإذا كان هناك من يرى في العاميات دِرْعًا للمتحدثين من الانجراف مع اللغات والثقافات الأجنبية، إلا أنها درعٌ غير حصين، لا يمكن الاتكاء عليه في سدّ الخطر الأجنبي. ولا يمكن أن تُقاس كفاءة طلاب أو نخب ثقافية أو إبداعات أدبية بالعاميات. فأن يعرف الطالبُ عاميته ويستعملها استعمالًا صحيحًا، لا يعني بالضرورة أنه قادر ومتمكن من الفصحى، والعامية لن تُمكّنه من البحث العلمي، والتحصيل الدراسي. وأي إبداع بالعامية يبقى رهين المحلية، ويُشكّل إضافة إلى الرصيد الشعبي المحلي. وتصعد قيمته بقدر ما يضيف إلى دراسة الفصحى وإثرائها.

ولأنّ الفصحى هي لسان الثقافة والتراث ولغة العلم والتعلّم لقرون ممتدة، فإن التمسّك بها تمسك بهوية ثقافية وحضارية تمتد عبر الزمان والمكان، وحين يختارها أبناؤها، أو الناطقين بغيرها أن يتحدّثوا بها، فإن ذلك الاختيار يُبنى غالبًا على موقف لا يخلو من الاعتداد والثقة ويتوافق مع المصلحة.

6.2. من أثر العامية في الفصحى

درج الناس منذ القِدم على التحوّل من العاميّات بتلوناتها الصوتية والصرفية والتركيبية إلى نموذج الفصحى المتعارف عليه والمتفق عليه ضمنًا في الكتابة والتدوين. ولذلك وصلنا الشعر والنثر منذ العصر الجاهلي بلغة (مِعيار) لا تُبرزُ تلوّنات اللهجات العربية التي وصلنا وصفها في كتب اللغة، واقتصرت أمثلتها على الشواهد، وأعني التلونات الصوتية التي أشارت إليها كتُب اللغة، مثل: العَنْعَنَة، والكَشْكَشَة، والكَسْكَسة.

ومع ظهور الإنترنت، شاعت محاولات كتابة العربية بالحرف اللاتيني، لأسباب تقنية غالبًا، ثم بدأت ظاهرة الكتابة بالعامية، ابتداء من كتابة الحروف كما تُنطق بالعامية بدل إثبات أصلها الفصيح، ودمج كلمات، وزيادة حروف، إضافة إلى الدمج بين العامية والفصحى في المعجم والتركيب على نحو يجعل الناتج هجينًا.

وهذه بعض الأمثلة أستقيها من وسائل التواصل الاجتماعي (تويتر والواتسآب):

- الله يبارك فيج (فيكِ).
- عقبالك. (العقبى لك)
- طالب طب وتصويره على قد عقله.
- مو مصبرني على الحجر الا اني اشوفهم يكبرون قدام عيوني.
- يعني م يخاف ان باجر حد جي بيسوي ف خواته ولا حد؟

والخطورة في هذه الظاهرة وشيوعها، أقصد ظاهرة الكتابة بالعامية، أنها تتسرّب إلى وعي أبناء اللغة لتشكّل نظامًا لغويًا جديدًا مشوّهًا وهشًّا، ويؤثّر

في معرفتهم بالفصحى وأدائهم لها قراءة وكتابة وتحدّثًا واستماعًا. ويصبح هذا النظام الجديد مع كثرة ممارسته والتعرّض له عصيًّا على التغيير، حاجزًا بين اللغة الفصحى وأبنائها.

3 الرطانة وصراع البقاء

حين يجتمع نظامان لغويان مختلفان يتداخلان ويمتزجان، تنشأ أنماطٌ جديدةٌ تمثّل كياناتٍ (نوعات) خليطًا mixture of varieties، منها ما يُعرف **بالرطانة (اللغة الهجين) pidgin**. وهي "لغة مشتركة a lingua franca تنشأ عن محاولة الاتصال بين متحدثين ينتمون إلى لغات مختلفة، لا تكون اللغة الأم لأي من المتحدثين بها، وتتميّز ببساطة تراكيبها ومحدودية كلماتها، بما يحقّق الحدّ الأدنى من التفاهم بين المتحدثين بها"(Crystal، 2008).

أما إذا أصبحت هذه الرطانة (اللغة الهجين) اللغة الأم لأطفال يولدون لآباء يتكلّمون هذه الرطانة، فيكتسبونها بوصفها اللغة الأصلية native language، فإنها تتحول من مجرد رطانة pidgin إلى ما يُعرف باللغة المولّدة (المزيج) Creole (Bright، 1992)، مثل اللغة المولّدة في هايتي وفي المقاطعات الفرنسية الواقعة في ما وراء البحار، مثل المارتينيك والغوادلوب (كالفي، 2008).

ولما كانت الرطانة محاولة للاتصال بين جماعتين لغويتين غير متكافئتين (ماديًا أو سياسيًّا أو اجتماعيًّا)، إذ تمثّل لغة الأقوى اللغة الغالبة Superstratum، ولغة الآخر اللغة المغلوبة Substratum، فعادة ما تؤخذ كلمات اللغة الهجين من اللغة الغالبة، وتحتفظ اللغة المغلوبة بخصائصها النحوية (Bright، 1992). والغلبة هنا مرجعها مكانة الجماعة اجتماعيًا أو اقتصاديًا أو عسكريًا. فقد نشأت كثير من الرطانات نتيجة العلاقات التجارية أو في المستعمرات. "هكذا نشأت اللغة الانجليزية الخليط التي أعطت اسمها لهذا النوع، من لقاء الإنجليزية والصينية في وضع التبادل التجاري على وجه الخصوص: قاعدةٌ نحوية صينية، ومفرداتٌ إنجليزية يُنطق بها على الطريقة الصينية. وكلمة (بيدجين Pidgin) نفسُها... تحريف لكلمة (بِزنس) الإنجليزية"(كالفي، 2008).

ويشهد الخليج العربي موجة من الرطانات في ظل الانفتاح الاقتصادي، وخلل التركيبة السكانية، وارتفاع معدّل العمالة الآسيوية، والاعتماد على المربيات الأجنبيات في عملية التنشئة الاجتماعية. فنشأت الرطانة لتحقيق التواصل بين أقلية عربية (مستقبِلة) لها الغلبة الاقتصادية وأكثرية آسيوية (وافدة) مغلوبة اقتصاديا، لا يجيد أحدهما لغة الآخر، وقد لا يرغب في ذلك، -ربما تمسكًا بهويته وانعزالًا في جماعته- كما يفتقر أحد الطرفين لمعرفة لغة وسيطة كالانجليزية. فتبدو الرطانة وسيلة اتصال من أجل التواصل في حدّه الأدني.

1.3. مثلٌ من الرطانة في الإمارات (عربي/ أوردو):

واستعراض بعض الأمثلة يكشف عن نظام جديد يبدو في ظاهره عربيًا، لكنّه يخضع لتركيب اللغة الأجنبية، والناتج تراكيب وجُملٌ هشة على النحو التالي (طه. 2002)، و(الشرهان، 1990):

- في الرطانة: "إنت شو يريد؟"، وفي العامية: "شو تريد؟"، أي: "ماذا تريد؟"
- في الرطانة: "سوّي تنظيف"، وفي العامية: "نظف البيت". (وهو تعبير فصيح)
- في الرطانة: "أنا الحين في يجي"، وفي العامية: "ييتْ تَوْني أو تَوْني ييتْ"، أي: "أنا أتيت الآن"

وقد يبدو الأمر في ظاهره محصورًا في استعمال محدّد ويقع في دائرة وعي المتكلمين. لكنّ اللغة ليست مادة يمكن حجزها أو تقييدها في المختبر. واستعراض بعض كتابات الطلبة ومواقع التواصل الاجتماعي تكشف كيف تتسلّل الرطانات إلى الاستعمال.

2.3. مخاطر أم أوهام:

هل تمثّل الرطانة تهديدًا للهوية؟ إنها كما يقول (هدسون، 1990): "دليلٌ على ما قد يحدث إذا لم تُستخدم اللغة كرمز للهوية الاجتماعية". ويرى بعض الباحثين أن الرطانات "تختفي باختفاء السبب الرئيسي للتواصل"(حنا، 1997) ما لم تتحول إلى لغة مُولَّدة Creole. فما احتمالات تحوّل الرطانة إلى لغة مولّدة؟ وهل من أثر للرطانة في اللغات التي تُشتق منها؟

إن نشأة اللغة المولّدة تستدعي ظروفًا خاصة، مثل الهجرة والإقامة الدائمة واعتماد الرطانة لغة للتواصل مع الأبناء بحيث تشكّل هذه الرطانة اللغة الأم لجيل ناشئ، فتصبح لغته الأولى، وتتطور لتسدّ حاجاته الاجتماعية والنفسية والثقافية. والسؤال المطروح هنا: ما الذي يدعو الآباء للتخلي عن لغتهم الأولى ليتحاوروا مع أبنائهم برطانة (لغة هجين)؟ ويبدو أن هذا الأمر لا يحدث بقرارٍ، وإنما يحدث بعد تعاقب أجيال، تتسلّل منها لغتها الأصلية التي تنحصر دائرة استعمالها في الأسرة أو الجماعة التي ينتمي إليها الفرد. فتظهر أجيال تقلّ حصيلتها من لغتها الأولى، وتتعاظم حصيلتها من الرطانة، فتنقلها إلى الأجيال التالية.

ومن الملاحظ أن الفرد يمكنه التحوّل بتلقائية وسهولة بين لغته الأولى والرطانة. فإذا ما تسلّل إلى حديث المرء مع أبناء قومه شيء من الرطانة، أصبح موضع تَنَدُّرٍ وسُخرية. ويدرك الطفل في حدود الخامسة هذه الآلية، ويستخدمها بكفاءة عالية؛ فيتحدث مع أهله بالعامية، ثم إذا تحدّث مع شخص أجنبي تحدّث بالرطانة. وإذا لُقّنَ الانجليزية في سنواته الأولى، فإنه يتنقّل بين: العامية، والإنجليزية، والرطانة بمهارة. وتنضاف إليها الفصحى من مشاهداته لبرامج الأطفال الفصيحة في التلفاز، فيستخدم الفصحى في لعبه، وتقمّصه لبعض الأدوار. (وإن كان ذلك مما بدأ يتقلّص في السنوات الأخيرة بسبب

انحسار الفصحى في برامج الأطفال، وتحوّل الأطفال إلى البرامج الانجليزية في الفضاء الإلكتروني).

والتنقّل بين هذه النوعات بمهارة لا يعني أن اللغة في مَأمَنٍ من أثر الرطانات. فاللغة ليست مجرد لسان، إنما هي حامل للثقافة والفكر والمعرفة. والطفل الذي يتربى على يد مربية لا تجيد العربية (أو تكسّرها)، فإنه يلتقط عن طريقها أداء مشوهًا للغة، وهذا الأداء يعجز عن نقل أي مخزون ثقافي في اللغتين. كل ذلك "يُشكّل عائقًا في سبيل النمو اللغوي عند الطفل، وفي سبيل نموه الفكري والاجتماعي والثقافي من خلال لغته الوطنية"(عفيفي، 1995). ولعلّ ذلك يبرّر شيوع ظاهرة تأخر بعض الأطفال في الكلام ومشكلات النطق، بسبب التشويش الذي يتعرضون له إزاء أشكال لغوية مختلفة.

ورغم نجاح الفرد في التنقل بين العامية والرطانة والإنجليزية في السياقات المختلفة، فإنه كثيرا ما يخلط بينها في حوار واحدٍ، لاسيما حين تعجز الرطانة عن إيصال الفكرة، وتَقْصُرُ معرفتُه –أو معرفة الطرف الآخر- بالإنجليزية عن توضيح المقاصد أو فهمها، فينشأ نموذجٌ ركيك مُشوّه لا يعبّر عن ثقافة أي طرف. ويتسلّل هذا النموذج إلى أبناء اللغة، فتسمع الأم تخاطب طفلها الصغير لتحذره من سقوط ما تعبث به يداه:

- "انتبه، بعدين بيسوّي فُل داون". (أي: انتبه! سيسقط)

وتتضاعف المشكلة في الأسر التي تكون فيها الأمهات غير عربيات، وغالبا من الجنسية الآسيوية، فرغم أن الأبناء يكتسبون لغة الأم (غير العربية) بتلقائية منذ الطفولة، بالإضافة إلى لغة الأب (العربية/ العامية)، فإنهم يتعرّضون إلى الرطانة التي يتحدّث بها الأب مع الأم لعدم إتقان كل من الطرفين لغة الآخر، وتتحدث بها الأم مع الوسط الاجتماعي (العربي). فتتسلل الرطانة إلى لغتهم، ويظهر أثرها في نحو خاص في العربية الفصحى التي يكتسبونها تعلّما في المدرسة. وكثير من الأخطاء الكتابية التي يقع فيها الطلبة لا وجه لها ولا مبرّر إلا أنها امتداد للرطانة. وتمتد هذ الأخطاء إلى مواقع التواصل الاجتماعي وغيرها.

3.3. مثلٌ من و اقع اللغة "المكتوب":

وبحكم عملي في التعليم، فإنني أواجه ما يواجهه كثيرٌ من المُعلّمين من ضعف الطلاب في الكتابة والقراءة. وبصرف النظر عن المُسبّبات التي ربما عَرضتُ لبعضها في هذا البحث، وهي أكثر وأكبر من أن يُحاط بها في هذه الدراسة، فإن الذي يتّصل بموضوع بحثي، هو انعكاسات هذا الواقع اللغوي وصراع الهويات على الكتابة. فالطالب ينشأ في محيط يتحدث العربية الدارجة مع أهله، ويتحوّل إلى الرطانة مع العمالة الأجنبية، ويتحدّث الإنجليزية في دراسته ابتداءً من مرحلة الرياض، وربما قبل ذلك في الحضانة أو في حال وجود مربيّة تتحدّث الإنجليزية. وأما العربية الفصحى فقد لا يتعرّض لها قبل السادسة في المدرسة، إلا إذا اجتهد الوالدان في تعريضه لها أو كان المحيط مُهَيّئًا لذلك من خلال حفظ كتاب الله، ومشاهدة برامج الأطفال الفصيحة، وقراءة القصص، وغيرها. وتحوّل المتكلّم بين النوعات اللغوية (الفصحى والعامية والرطانة) قد يحدث بمرونة وتلقائية. ولكنّ هذا التحوّل يتعثّر عندما يتحوّل إلى الكتابة، لأن الكتابة تحتاج رصيدًا لغويًا من المعجم والتركيب والاستعارات والأساليب، وكل ذلك يتحدّد بدرجة حضور النوعات اللغوية في حياته واستعماله.

وإن كان أثر الإنجليزية ينعكس على نحو جليّ ثقافيًا ونفسيًا على أبنائنا، ويؤدي إلى انصرافهم عن العربية عمومًا، وعدم الاكتراث بها، في حين أن أثرها في جسد اللغة، أي نحوها ومعجمها ليس كبيرًا. وإن كانت الإنجليزية تتسلّل إلى المحكي أكثر من المكتوب، فذلك يدلّ على أن ابن اللغة يكون أكثر وعيًا وحضورًا حين يتحوّل من لسان إلى آخر.

أما حين ننظر في أثر العامية، فإنّ صلتها الوطيدة بالفصحى وقربها منها، يجعلها أكثر تأثيرًا، وتأثيرها أكثر خفاءً. وجُلّ ما يواجهه أبناء العربية من ضعف كتابيّ، يظهر في التقاطع بينهما، حيث تتسلّل العاميّات إلى الكتابة، ويَسْنُدُ ذلك قلةُ المقروء من الفصحى، وانصراف الطلبة إلى مواقع التواصل الاجتماعي التي تُمثّل مستوى متدنٍ من اللغة في أكثره، يغلب عليه المشاهدة والاستماع إلى أحاديث عامية بمضامين في أكثرها ليست ذات قيمة.

ثم تأتي الرطانات بدورها لتترك بصمة على بعض الكتابات، وغالبًا ما ينتج عنها أخطاء صارخة لا يقع فيها ابن اللغة حتى في عاميته، وغالبًا ما تكون نتاج أسرة من أصول غير عربية أو بعض أطرافها كذلك. ولست متأكدة إذا كان أثر العمالة الأجنبية يمكن أن يمتدّ إلى سنوات تتجاوز عمر الطفولة، إذ يحتاج هذا الأمر إلى دراسات. وهي أخطاء يُدركها المتكلّم بالعربية مباشرة، ولا تقبلها العاميّات. وهذا مثال من (تويتر):

- وحتى المؤسسات الحكومة لا تشغل الغير مواطنين في العمل.

وقد يُبرّر ذلك بأنه من زلات اللسان، لكن حين يتكرّر في كتابات الشخص نفسه فإن ذلك يُؤكد أثر الرطانة، ومن ذلك ما كتبته إحدى الطالبات:

- "الامتحان جاء على غير المتوقع، فقد كان دقيقًا وصعبًا لأن المادة الوجودة عندي لدراسة كانت مجرد حشو في الكلام ولا يوجد أسئلة وهو أتى بالحشو على هيئة سؤال بطريقة غير مفهومة أبدًا وكل ما نسأله الدكتور يرفض التوضيح لنا".

(هذا النص من إنشاء إحدى الطالبات في مادة الكتابة الإبداعية في عام 2007، وقد أثبتُه كما هو)

والانتقال من الدارجة إلى الفصحى ينعكس على المعجم والنحو والأسلوب. فالطالب يعرف مفردات فصيحة، ولكنّه لا يحسن استخدامها على نحو صحيح، وغياب الإعراب في العامية يُفقِده الحس النحوي في الكتابة، وكثيرًا ما ينعكس مستوى الكلام الشفهي في الدارجة على أسلوبه في الكتابة، وأبعد من ذلك، أنه يؤثر في قدرته المجازية في صناعة التشبيهات والاستعارات؛ وهذه بعضها، وأعتذر عن الأخطاء النحوية أو الإملائية التي أنقلها كما هي في كتابات الطلبة:

- بقيت أنا أنظر بتأمل من نافذة السيارة إلى الناس المتناثرون كحبات الخرز في الشارع. (وهذا التصوير يمكن أن يكون مقبولًا في حال النظر من علو، وليس من نافذة السيارة)
- كان هذا الرجل مفرط الطول، ضخم البنية، فتوجّه نحو السيارة القابعة حول سيارتنا.
- عدنا إلى البيت وأنا في حالة ذهول تعلوها ابتسامة خفيفة.
- فهذا حال الأمة اليوم يركض وراء المال والمناصب.
- ستة أيام غير (عنوان).

ناهيك عن الأخطاء الإملائية التي هي من انعكاسات الكتابة بالدارجة، مثل اثبات الياء بدل الكسرة في خطاب المؤنث، نحو: (أنتي) بدل (أنتِ)، و(لكي) بدل (لكِ). وكذلك الخلط بين الحروف الفصيحة وصورها النطقية في الدارجة، مثل كتابة (محاظرة) بدل (محاضرة)، و(إغاضتي) بدل (إغاظتي)... كما أنّ محدودية الدارجة في صيغها الصرفية يحدّ من قدرة الطالب على استخدام التنوع الصرفي في الفصحى، لاسيما إذا لم تتوفّر له فرص التعرّض لها واستخدامها في دراسته أو حياته اليومية. فنجد في كتابات الطلبة:

- استمريت بالتفكير.
- احمريت خجلا.
- تعرّضت طريقهم سيارة مسرعة. (بدل اعترضت)

والمعجم يتقلّص، وتختلط المفردات ومعانيها، فتنتج جملٌ مثل:

- وبدأت دموعي تنهار بدون إحساس. (بدل تنهمر)

ولا يقتصر الأمر على الطلبة، فاستقصاء سريع في "تويتر"، يمكن أن يكشف عن واقع مماثل:

- أتمنى من وزارة التعليم العالي الاهتمام بهذا موضوع لأن طلاب لا يعرفون سوق العمل.. واجهت هذه مشكلة من قبل...
- أنا أخذت النوافذ إلي تقول عنه حق منزلي وهي تفتح ع فوق 45 درجة وتفتح ع داخل... وفيها مانع حشرات سلايد ينزل... روعة
- صباح الخير يا سعادة الفريق هذا حسابين يتكلموا عن الدولة.

الخاتمة

يبدو الحديث في الواقع اللغوي شائكًا ومتشعبا، لكنه واقع كثير من الدول العربية، والخليجيّة على وجه الخصوص. فمازال العالم العربي مُستعمَرًا ثقافيًا ولغويًا، والتسارع الاقتصادي الذي تعيشه المنطقة غير مُحَصّنٍ تجاه التغييرات الثقافية والاجتماعية. واللغة أصبحت أداة للمستقبل (الاقتصادي)، تُقاس بمعايير الربح والخسارة. وتغيير هذا الواقع يحتاج إلى تخطيط لغوي يبدأ بدراسة مواقف الناس تجاه لغتهم، ويعمل على تغيير قناعاتهم، ويساعدهم على تطوير أدائهم بما يتوافق مع حاجاتهم ومتطلبات العصر. كل ذلك يحتاج إلى إرادة حقيقية للتغيير يدعمها قرار سياسي. وردّ الاعتبار للغة حية أيسر –بلا شك- من إحياء لغة ميتة.

وإذا كانت العامية في وضعها الطبيعي رديفة الفصحى وسندها، فإنها في ظلّ تراجع الفصحى أو تقليص أدوارها التعليمية والثقافية والسياسية، وفي ظل تزاحم الساحة باللغات الأجنبية والرطانات، أصبحت العامية ندًّا للفصحى. وكل دعم للعامية بمثابة هدمٍ في بناء الفصحى.

وإذا كان الصراع مُعلنًا وواضحًا بين العربية من جهة واللغات الأجنبية والرطانات من جهة أخرى بوصفه صراع هويات، فإن الصراع بين العامية واالفصحى هو صراع خَفيّ، وأشبه بحرب أهلية بين هويتين غير منفصلتين، لكنّ إرادةً ما تريد أن تُعمّق القُطريّة في المجتمعات العربية، وتسعى لفك الارتباط مع الأمة بمكوناتها الأولية الدين واللغة والتاريخ. ولا غرابة أن تتزامن الدعوة إلى العاميات مع الطائفية ومحاولات طمس التاريخ وتشويهه في الآونة الأخيرة.

إن الحاجة مُلحة لدراسة هذه الظواهر وأثرها في اللغة وبنائها بغية تخطيط لغوي ناجح. فالتشخيص الصحيح بداية الحل. والواقع اللغوي في العالم العربي قد يتفاوت في تفاصيله، لكنّه يتشابه في عمومه. ومن التفاصيل التي حاولت هذه الدراسة أن تُسلّط عليها الضوء، الرطانة، بوصفها ظاهرة محدودة الانتشار، شائعة في الخليج العربي وفي الإمارات على وجه الخصوص، ولا يمكن تجاهلها في محاولة تصوير الواقع اللغوي في العالم العربي.

وليس من هدف هذه الدراسة أن تضع حلولًا بقدر ما تحاول أن تشخّص الداء. ويمكن اختزال أهم نتائج هذه الدراسة فيما يلي:

1. التعدّد اللغوي في جميع صوره انعكاس لتعدّد في الهويات، ولا يمكن النظر إليه على أنه خير أو شر إلا بالنظر إلى واقع اللغات الأصلية في بيئاتها.
2. تنتج الثنائية والازدواجية والرطانة، غالبًا، عن محاولة للتعايش في واقع متعدّد الهويات، ولا تشكل هذه الظواهر تهديدًا في ذاتها، وإنما بما يترتّب عليها من نتائج.
3. للعاميات أدوارها الاجتماعية، والأصل أن تتعايش مع الفصحى من غير تهديد، لكنّ إقصاء الفصحى وتمكين العاميات على حسابها يفتّ من

جسد اللغة (الفصحى)، ويهدّد إرثها التاريخي والحضاري ومستقبلها.

4. الرطانة ظاهرة محدودة في وجودها وأثرها، وكلّما زاد الوعي بها قلّ تهديدها، وفي المقابل فإن قلّة الوعي بها، يَقضّ بناء اللغة على المدى الطويل.
5. لا يمكن إلغاء النوعات اللغوية (العامية أو الفصحى أو الرطانة) أو إيقاف مدّ اللغة الإنجليزية. لكنّ "القوة الرمزية" التي يمكن إكسابها للعربية الفصحى، من خلال تمكينها اجتماعيًا وثقافيا وسياسيًا واقتصاديًا، سيحدّ من الظواهر اللغوية (الثنائية، والازدواجية، والرطانة) وأثرها في الفصحى.

وختامًا أسأل الله التوفيق والسداد.

المصادر والمراجع

بعلبكي، ر. (1990). معجم المصطلحات اللغوية، إنكليزي – عربي. ط1. بيروت: دار العلم للملايين.
بكداش، ك. (2002). علم النفس ومسائل النمو. ط1. بيروت: دار الطليعة.
تراسك. ر.ل. (2002). أساسيات اللغة. ت: رانيا إبراهيم يوسف. المشروع القومي للترجمة. ع381. ط1. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
حنا، س. (1997). معجم اللسانيات الحديثة، إنكليزي - عربي. بيروت: مكتبة لبنان.
دورتيه، ج. (2009). معجم العلوم الإنسانية. ت: جورج كتورة. ط1. أبوظبي: دار كلمة. بيروت: مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
دوسوان، أ. (2011). كلمات العالم، منظومة اللغات الكونية. ت: صديق محمد جوهر. ط1. أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة.
ريتزر، ج. (2015). العولمة نص أساس. ت: السيد إمام. ط1. القاهرة: المركز القومي للترجمة.
الزاوي، ح. (2014). الهوية وفلسفة اللغة العربية. ط1. بيروت: منتدى المعارف.
السعران، م. (1963). اللغة والمجتمع، رأي ومنهج. ط2. القاهرة: دار المعارف.
الشرهان، ع. (1990). تحوّلات اللغة الدارجة، تأثير التغير الاجتماعي على العربية في الإمارات. ط1. الشارقة: منشورات اتحاد كتاب وأدباء الإمارات.
صن، أ. (2008). الهوية والعنف، وهم المصير الحتمي. ت: توفيق، سحر. عالم المعرفة. ع. 352. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون.
طه، هـ (2002). اللغة الهجين في مجتمع الإمارات. (بحث غير منشور)
عفيفي، ع. (1995).علم الاجتماع اللغوي. ط1. القاهرة: دار الفكر العربي.
الفاسي الفهري، ع. (2014). السياسة اللغوية والتخطيط، مسار ونماذج. ط1. الرياض: مركز الملك عبدالله بن عبد العزيز الدولي.
الفاسي الفهري، ع. (2019). العدالة اللغوية والنظامة والتخطيط. ط1. عمّان: دار كنوز للمعرفة.
كالفي، ل. (2008). حرب اللغات والسياسات اللغوية. ت: حسن حمزة. مراجعة: سلام بزي. بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
لويس. م. (1959). اللغة في المجتمع. ت: تمام حسان، وإبراهيم أنيس. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه.
معلوف، ل. (2015). هويّات قاتلة. ت: نهلة بيضون. ط3. بيروت: دار الفارابي.
الموسى، ن. (2007). اللغة العربية في العصر الحديث، قيم الثبوت وقوى التحول. عمّان: دار الشروق. ط1.
الموسى، ن. (1987). قضية التحول إلى الفصحى في العالم العربي الحديث. عمّان: دار الفكر. ط1.
النجار، ل. (2008). اللغة العربية وهوية الأمة في مؤسسات التعليم العام والعالي في دولة الإمارات. مجمع اللغة العربية الأردني. ص 137 – 183.
النجار، ل. (2012). اللغة العربية بين أزمة الهوية وإشكالية الاختيار. من كتاب "اللغة والهوية في الوطن العربي، إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية". ط1. الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. ص201- 224.

References

Bourdieu, P. (1977). The economics of linguistic exchanges. Social Science Information, 16, 645–668.
Bright, W. (1992). International Encyclopedia of Linguistics. Vol.3. New York: Oxford University Press.
Crystal, D. (2008). A Dictionary of Linguistics & Phonetics. Malden, Oxford, Carlton: Blackwell Publishing. 6th edition.
Edwards, J. (2009). Language and Identity an Introduction. New York: Cambridge University Press.
Norton, B. (1997). Language, Identity, and the Ownership of English. TESOL Quarterly. 31(3), 409-429.
West, C. (1992). A matter of life and death. October, 61, 20–23.
2018 Research on 100 Million Tweets: What it Means for Your Social Media Strategy for Twitter:
https://www.vicinitas.io/blog/twitter-social-media-strategy-2018-research-100-million-tweets
Distribution of Twitter usage in the Middle East and North Africa in 2016, by language:
https://www.statista.com/statistics/729700/mena-twitter-usage-by-language/